# الباب الأول

## "دور الفلسفة في الحوار الحضاري"

# الفصل الأول

## صلة الفلسفة بمناهج العلوم الإنسانية

"قراءة في كتاب "منهج جديد للدراسات الإنسانية"

تمهيد:

إن الإنسانية اليوم بحاجة ماسة للبحوث المختلفة في جميع التخصصات أكثر من أي وقت مضى، ولاسيما البحث في الظواهر الإنسانية، الذي يبقى دائما بحثا يتميز بخصوصياته، سواء تلك التي تميزه عن البحث في مختلف الظواهر، أو التي تربطه بكيان الإنسان ذاته.وقد قامت عدة محاولات فلسفية وإبستمولوجية حاول أصحابها أن يطابقوا بين الظاهرتين ( الإنسانية، والطبيعية) من حيث توحيد منهجهما، معتبرين أن منهج العلوم الطبيعية بما يحتوي عليه من دقة هو النموذج الأمثل الذي ينبغي أن تبلغه مختلف العلوم الأخرى للوصول إلى معرفة تحقق أكبر قدر من الدقة والموضوعية، والمنهج في حد ذاته ــ كما هو معلوم ــ من الوسائل الضرورية في البحث، في كل حقول المعرفة، ولكن للحديث عن المناهج العلمية، تصادفنا مجموعة من التساؤلات، يمكن تحديدها كالآتي: هل المناهج في كل العلوم وميادين المعرفة واحدة؟ وهل ما حققته العلوم الطبيعية بمناهجها المختلفة يمكن أن تنطبق في العلوم الإنسانية؟ وهل هناك خصوصيات محددة في كل منهج من مناهج

تلك العلوم؟ وما هي الخصوصيات التي جعلت مناهج العلوم الطبيعية هي النموذج؟.

ولعل هذا هو الهدف العام الذي حاول المؤلف الأستاذ "ريكمان Rickman"[1] توضيحه، في بحثه، من خلال دراسته الرائدة في كتابه الموسوم بالعنوان المذكور أعلاه، محاولا ليس فقط تبيان معطيات وخصوصيات المنهج في العلوم الإنسانية، بل وكذلك معطيات وخصوصيات المنهج في العلوم الطبيعية، برؤية فلسفية إجتماعية، على اعتبار أن المنهج الأول يتعلق بالطبيعة الإنسانية، مما يفرض عليه أن يختلف عن المناهج في العلوم الأخرى، وذلك الاختلاف لا يمكن أن يكون على مستوى الخطوات العامة للمنهج، وإنما على مستوى المفاهيم والافتراضات، وعلى مستوى الوعي نفسه، وبهذه الرؤية أو الوعي يمكن كما قال "ريكمان" أن نفتح آفاقا جديدة للمنهج في العلوم الإنسانية، أو نفتح ما قد يكون قد أغلق، وبذلك ــ كما يقول مقدم الكتاب ــ يقتنع كل دارس له بأن الفلسفة ليست ضرورية فقط في جانبها الابستمولوجي، وإنما هي ضرورية أيضا في جانبها المعرفي والنقدي، لأنها تعبير عن الواقع ومشكلاته الراهنة أو التاريخية.

---

(١). (( هـ. ب. ريكمان، هو أستاذ بعدة جامعات وكليات بريطانية، من بينها أكسفورد، وهل، وسيتي، وتخصص في تدريس الفلسفة وعلم النفس، من مؤلفاته: المعنى والتاريخ، ومنهج جديد للدراسات الإنسانية، محاولة فلسفية، كما أن له عدة مقالات، وكان الهدف العام من كل مؤلفاته، هو تبيان دور الفلسفة في توضيح أسس الدراسات الاجتماعية)). من مقدمة مترجمي كتاب، "منهج جديد" المشار إليه، وهما: د.علي عبد المعطي محمد، د.محمد علي محمد، مكتبة مكاوي، بيروت، ١٩٧٩م، ص٨٨.

إن ضرورة العناية بالبحث في العلوم الإنسانية كما يقول المؤلف تعود إلى:تزايد عدد السكان من جهة، ومن جهة أخرى إلى التطور التكنولوجي (التقني) الذي وصلت إليه الإنسانية، وما صاحبهما من تعقيدات على مستوى الحياة الاجتماعية، ونحن ـــ كما يقول ـــ ملزمون بأن نعيش مع هذا الاكتظاظ السكاني، ومع هذه التكنولوجيات، ومن هنا كان لا بد من وجود خبراء وعلماء يستطيعون فهم الناس، وفهم مشكلاتهم، يكونون قادرين على مساعدة الفرد على التكيف مع الآخرين، ومساعدة الآخرين على حل مشكلاتهم، وهذا هو الهدف الذي أدى إلى تنوع العلوم التي اهتمت بالإنسان خصوصا في عصرنا الراهن، وإلى التوسع في الدراسات الإنسانية، والعلمية، لأن العلم في مفهومه، ما هو إلا الإحاطة والإلمام بالحقائق والتوسع فيها.

وهكذا فإن دراسة كتاب "منهج جديد للدراسات الإنسانية"، تعتبر أكثر من ضرورية في البحوث والدراسات الفلسفية، نظرا لما تضمنه من آراء كثيرة حول العلوم الإنسانية، وإننا نعتقد أن الكتاب يعبر عن وجهة علمية موضوعية تتعلق بالدراسات الإنسانية والفلسفية، وتبرز أهمية الكتاب من المقدمة التي وضعها المترجم إلى العربية، وهي أساسية ومهمة نظرا لما اشتملت عليه من معاني هامة في مسألة المناهج المتعلقة بالعلوم الإنسانية، والموضوعات التي تتناولها، ويرى المترجم أنه من غير الفائدة، ولا من غير الاعتراف بالفضل أن نتعرض إلى المناهج في العلوم الإنسانية و لا نتعرض إلى " ماكس فيبر Max Weber[1]" باعتباره أهم شخصية

---

(١). ماكس فيبر: اقتصادي وعالم اجتماع وفيلسوف الماني (١٨٦٤ ـــ ١٩٢٠)، يتميز فكره بحدس دقيق يتجلى في أعلى درجات التجريد، في الفصل بين عالم الفكر والمعرفة وعالم

العمل، ويقترب فكره من الفكر الكانطي. وكان من المطورين لعلم الاجتماع، وعلم الاجتماع الفيبري، وهو علم يكاد يكون تراجيديا، متشائما.

ويرى فيبر أن ماهية السياسة تتواجد في عالم من القيم المتعارضة، وهذا مما أدى بالبعض إلى الحكم على هذا الميدان المعرفي بالسلبية، ومن ثم فإن عالم السياسة هو مسرح لصراع الآلهة. ومن هذا المنطلق يضع ماكس فيبر الإنسان السياسي في وضعية مغلقة، في اختياره بين أخلاقية الإيمان وأخلاقية المسؤولية، وهو اختيار يمكن فهمه كاختيار بين الأخلاق والعمل.فبالنسبة لماكس فيبر فإنه لا وجود لأيدي نظيفة في العمل السياسي، فمن كانت يده نظيفة فلا يد له في السياسة، على الإطلاق.عموما فإن علم الاجتماع الفيبري هو علم عملي action، وعلم إنساني باعتبار الإنسان كائن عامل، فالعلاقة بين العمل والمعرفة، واستحالة تعيين خيار جوهري أساسي يسبق كل سلوك عملي، تجعل من العلم غير قادر على معرفة واكتشاف أية حقيقة للقيم الأساسية، بل أن ميول العالم لأي شيء له ما يقابله من ميول رجل العمل فنسبية القيم هي واحدة بالنسبة للفكر أو للعمل.

وتضاف إلى هذه النسبية ما يحمله الشيء في ذاته، فسلوكات الإنسان لا يمكن فهمها إلا القيم التي تتحكم فيها، فالعالم مثل سائق العربة الأفلاطوني الذي لا يعرف مطلقا إذا كان يجب إيصال ركابه إلى الميناء، لأن المهم عنده أنه يعرف كيف يقود عربته، فالعالم الذي لا يمكن أن يحكم على اختيار بأنه حسن بإمكانه أن يؤكد على الأقل شيئين: نتائج اختياره، ووضع الفاعل أمام عمله كمسؤول، أي يعي بنفسه عوامل سلوكه، وأن يعرف قيمة العوامل والقيم التي جعلته يختار.وباختصار فإن علم الاجتماع يصبح علم كيفيات السلوك (العمل) من جهة، ومعرفة الذات من جهة أخرى.

فعلم الاجتماع هو علم العمل أو "السلوك"، ويذهب البعض إلى محاولة بنائه على شكل العلوم الطبيعية، فيرد فيبر على هذه المحاولة بأن الإنسان لا يمكن أن يدرس مثل دراسة الحجر الساقط، لأن الإنسان يعمل أي أنه يملك إرادة، وهدف وأسباب، كما يرد في الوقت نفسه على الذين يستعملون في علم الاجتماع العاطفة و الميول، أنه يجب تكوين علم

ساهمت في بناء مناهج العلوم الإنسانية الحديثة وتطويرها، إذ لا يكاد ـــ كما يؤكد المترجم ـــ يخلو كتاب معاصر سواء على مستوى الموضوع أو المنهج، من الإشـــارة إلى هذا العالم.إذ يرجع الفضل لهُ في إرساء معالم علم الاجتماع المعاصر من خـــلال المناهج التي رسمها لمسائله، والآفاق الجديدة التي فتحها لفهـــم الحيـــاة الإنســـانية ودراستها، واستيعاب أبعادها وخصائصها الجوهرية، فهو قد بذل: ((جهدا ممتـــازا لكي يتغلب على التعارض القائم بين العالم الطبيعي، وأن يقدم لنا نسقا سوسيولوجيا يحتفظ بأقيم العناصر المتضمنة في كل من الاتجاهين ))[1].

وفضل "ماكس فيبر" ـــ كما يشير المترجم ـــ يعود إلى أنه استطاع أن يدمج مناهج العلوم الإنسانية بعضها بـــبعض، وأن يـــدخل العنصـــر الســـيكولوجي في

---

يستجيب لمعايير الموضوعية والمراقبة، أي أنه لا وجود لأي جانب نفسي في مفهومه. فالفعل هو الوسائل بالنهايات، كأثر الرغبة التي اختارت نهاية محددة، وكذا نزوع عد الوســـائل. فالمفهومية ترتبط بالخامة والنهاية المختارة، و بعبارة أخرى فإن فهم أي عمل، هـــو فهـــم معقوليته بالنسبة لخاتمته. وهذه المعقولية هي التي تمكننا من فهم ما يحمله مـــن لاعقلانيـــة. فالعلم لا يقتضي البعد الغامض الذي يعود إلى الحرية الإنسانية، والذي يمكن من الاستفادة من هذه الحرية بما تحمله من ذكائية "intelligible".

ويخلص فيبر إلى أن علم الاجتماع يهتم بسلوك الأفراد الاجتماعيين، فهو يهدف إلى فهم البشـــر كما هم عليه، وكما فكروا وعملوا، وهو لا يقف في هذه النقطة، فهناك ما يقـــع بعـــد المعقولية التي تحكمت في هذا السلوك وهو الجانب المبهم في السلوك، وقد لا يكون جانبـــا واعيا، فهناك ما يعتقد الفرد أنه قام به، وما قام به حقاً، فعلم الاجتماع يجد نقطة بدايته في الأفعال التي عاشها الإنسان. larousse multimedia, encyclopedie klio.

(١) المصدر السابق، ص١٥.

الدراسات الاجتماعية، من خلال تتبع مسار سبب الفعل الإنساني، وتحديد غاياته ومقاصده، رغم تشعبه، وتنوعه، وبتتبع السبب يمكن وضع العلم المراد دراسته على حقيقته العلمية التي تهدف في عمومها إلى ترقية الإنسان نفسه. غير أنه على مستوى العلوم الإنسانية يتعين إضافة عنصر آخر في المنهج، وهو الذي يسميه فيبر بـ "الفهم[1]" الذي يقوم على التعاطف مع الآخرين[2]، ومن هنا تحولت دراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية، إلى دراسة من الداخل، ولم تبق تراقبها وتتابعها من الخارج كالظواهر الطبيعية، وهذا هو التفرد الذي تميز به.

وسأحصر دراستي لهذا الكتاب في المسائل الرئيسية التي أثيرت فيه، لأن طبيعة البحث لا تسمح لنا بالتعرض إلى كل الجزئيات فيه، فالتعرض لها جميعا، يعني الإحاطة بها، وبمفاهيمها سواء كما وردت عند المؤلف، أو كما هي مستخدمة في

---

(١). الفهم: مصطلح يدل على إدراك موضوع التفكير وتحديده واستخلاص المدلول من الدال عليه، فهو مرادف للإدراك، والعلم اليقيني، الذي يدل على أن تعلم ما تصرح بفهمه لا يمكن أن يكون إلا كما فهمته.(جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، لبنان، دار الكتاب المصري، مصر، ١٩٧٩م، ج٢، ص ١٧٠). وقد استخدم اللفظ في اللغة العربية بنفس المعنى، وقد كان متداولا فيها منذ القدم، حيث عرفه، المناوي، بقوله: "هو تصور المعنى من لفظ المخاطب، وقال الراغب هو هيئة للنفس بها يتحقق معاني ما يحس". (المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق، محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، ١٤١٠هـ، ص٥٦٧).وقد عرفه الجرجاني كذلك، بقوله: "تصور المعنى من لفظ المخاطب". (الجرجاني، التعريفات، تحقيق، إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، ص٢١٧).

(٢). المصدر السابق، ص١٠.

السياقات الاصطلاحية، وقد يكون ذلك هو المشروع المستقبلي، لتتبع جزئيات الكتاب ومحتوياته كاملة.

## أولا: موضوع الدراسات الإنسانية

من الطبيعي أنه يتعين علينا مسبقا قبل أن نحلل عناصر الكتاب ومحتوياته، تحديد وضبط المعنى الاصطلاحي لمضمون المفاهيم التي شكلت عنوانه، وجوهر موضوعه، وكانت نقطة البدء فيه هي: "الدراسات الإنسانية"، التي حاول الباحث أن يضعها في نسق فلسفي خاص به، فكان مصطلح الدراسات الإنسانية كما بينه هو الذي يضم: التاريخ، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجية الاجتماعية، والاقتصادية، وعلم النفس، والفيلولوجيا، والتشريع، والدين المقارن، وبعض المسائل ذات الموضوعات العامة مثل: الجريمة، ونظرية الاتصال، والدراسات الإدارية[1]، وتهدف هذه الدراسات الإنسانية كلها إلى صياغة تفسير ذاتي أو شخصي وفلسفي وتأملي وكيفي واستبطاني ورمزي، للموضوعات التي تتناولها، وتقف بذلك في مواجهة التفسيرات السلوكية والكمية والوضعية[2]، والتجريبية التي لا تنفذ إلى طبيعة الفعل الإنساني، وهذه العلوم التي تضمها هذه الدراسات الإنسانية ليست بالضرورة هي كل العلوم المتعلقة بالإنسان وحياته، إذ أن هناك علوما لها صلة بالإنسان وحياته ولكنها ليست علوما إنسانية، فعلم التشريح على سبيل المثال هو علم يدرس الإنسان ولكنه، من العلوم الحيوية الطبيعية وليس من العلوم

---

(١). المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٢). المصدر نفسه، ص٨٩.

الإنسانية[1]، وبهذه النظرة الاصطلاحية حاول مؤلف الكتاب تجاوز المناهج العلمية المبنية على النظرة الكمية إلى المناهج المبنية على الاستبطانات للمسائل التي تعالجها، وقد يبدو الأمر غريبا ومعقدا، ولكنه حقيقة، فقد حاول "ريكمان" بهذه الرؤية إيجاد مناهج جديدة للعلوم الإنسانية تتجاوز ما هو معطى ومتعارف عليه، من مناهج متعلقة بها وبموضوعاتها، أي أنها تشمل كل ميادين المعرفة الإنسانية، ووسائطها وأدوات تعميمها وتمثلها، وسنحاول في دراستنا لهذا الكتاب، تتبع مختلف العناصر المتعلقة في جوهرها بالمنهج في العلوم الإنسانية، من حيث: ضرورته، وأهميته، وأهدافه.

فقد كان مؤلف الكتاب يعتقد أن كل العلوم وبكل المناهج تسعى إلى هدف واحد هو تطوير المعرفة الإنسانية، والمساهمة في حل مشكلات الإنسان الظرفية من أجل تحقيق سعادته، وسعادة الإنسانية جمعاء، وقد لا يحتاج هذا الاعتقاد إلى هذه الصيغة، لأنها في رأينا من الأمور البديهية التي لا جدال فيها، ولا يمكن القفز فوقها أو تجاوزها، فكل ما وصلت إليه اليوم الإنسانية من معارف، لم يتحقق إلا بفضل العلماء والبحث العلمي ـــ رغم أن للعلم في بعض الأحيان مآسي على الإنسانية ـــ ولكن ذلك لم يكن نهائيا، لأنه كلما حل الإنسان مشكلة، إلا وتصادفه أخرى، ومادامت هذه المشاكل موجودة ومطروحة فإن بحث الإنسان حولها لا يتوقف، وأن مسألة البحث العلمي لا تخص مجتمعا معينا، وإنما هي مهمة كل المجتمعات مهما كانت درجة تقدمها ورقيها، أو درجة تخلفها وانحطاطها، فالكتاب في جوهره يطرح رؤية مستقبلية لما يجب أن تكون عليه الدراسات الإنسانية التي لا يمكن عزلها عن

---

(١). جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج٢، ص١٠١.

بقية العلوم، بل يجب إلصاقها بها دون أن تذوب فيها.بمعنى أن تبقى محافظة على خصوصيتها، وإظهار آليات التفاعل وصوره، وضروراته بين مختلف العلوم، وإيجاد جميع المسوغات التي تجعل الفعل الإنساني واحدا في أي مجال من مجالات المعرفة.

## ثانيًا: الدراسات الإنسانية والفلسفية

يبدأ المؤلف في الفصل الأول من كتابه، بالمدخل إلى الفلسفة، ثم يضيف إلى المدخل دراسات إنسانية وفلسفية.مركزا على وجه الخصوص على مفهوميهما. فبالنسبة للعنصر الأول والمتعلق بمفهوم الدراسات الإنسانية، سعى فيه المؤلف إلى تحديد العلوم الإنسانية، وفي نفس الوقت تحديد ماهيتها وأهدافها، تحديدا فلسفيا عميقا، مبني على أسس إبستيمولوجية، تولدت في اعتقادنا من تعمقه في ضبط المصطلحات، ولذلك لم يكن غريبا أن يبحث عن مجموع الصفات والخصائص والمعايير التي تميز العلوم الإنسانية عن غيرها من العلوم الأخرى، ولذلك ــ كما يقول مترجم الكتاب في مقدمته ــ أن: ((ما يهتم به الدكتور ريكمان فهو يمثل مسألة فلسفية بالغة الأهمية. وإنني اعتقد أن عرضه لهذه المسألة جاء عرضا استثنائيا في وضوحه، وعمقه، واكتماله. لقد حاول أن يبين أن معرفة الدراسات الإنسانية هي في جوهرها مختلفة عن العلوم الطبيعية نظرا لطبيعتها البشرية الخالصة))[1].

فالمؤلف كان يهدف في كتابه إلى البحث عن مختلف المسوغات التي تجعل العلوم الإنسانية كلها ترتبط بسمات مشتركة، من حيث موضوعاتها ومناهجها، وأنساقها، ومن ثم رأى أن تلك العلوم، هي كل العلوم التي تتوحد مع بعضها البعض

(١). المصدر السابق، ص٩٠.

في تلك السمات، وتختلف مع غيرها من العلوم الأخرى أيضا من خلال السمات التي تتميز بها، وظهر هذا التميز على وجه الخصوص ابتداء من القرن السادس عشر، بعد تلك التطورات التي حدثت على مستوى العلوم المختلفة، كالفيزياء والكيمياء، وغيرهما، فالمؤلف كما هو واضح في العناصر التي تطرق إليها أنه سعى بحماسة شديدة إلى تبيان خصوصية العلوم الإنسانية التي خضعت لمنطق التخصص، وانفصلت عن العلوم الأخرى، واختلفت عنها.

ومما لاشك فيه ــ وهو واضح للعيان ومؤكد، كما يذهب "ريكمان " برؤيته النافذة ــ أن حقيقة العلوم الحديثة تتميز بالتنوع، والتخصص، والانفصال بعضها عن بعض، ولكنها كلها كما يعترف هو نفسه في آخر المطاف أن تلك العلوم تدخل تحت إطار واحد، وهو إطار المعرفة الإنسانية الشمولية، ويتضح ذلك مما قدمه الفلاسفة مرورا بأفلاطون إلى أرسطو، وبعدهم ابن خلدون وديكارت وغيرهما من الفلاسفة، فهم جميعا يندرجون تحت سقف واحد، وهو سقف المعرفة الإنسانية التي تتعاون جميع فروعها وتخصصاتها في هدف واحد وهو تطوير الحياة الإنسانية، وتخطي الحواجز التي تصادفها، وتحقيق أهدافها، بالرغم من المسافات البعيدة التي تفصل هؤلاء الفلاسفة بعضهم عن بعض من خلال رؤاهم وتصوراتهم لموضوعات المعرفة وأدواتها ووسائلها.

أما بالنسبة للعنصر الثاني من الفصل الأول الذي تعرض إليه "ريكمان" فهو المتعلق بالمدخل الفلسفي، الذي يعتبره ضروري لكل دراسة علمية، لأنه لا وجود لبناء علمي سليم يمكن أن يستقل عن مجموعة التصورات والأنساق التي يبنيها الإنسان في أي ميدان من ميادين المعرفة، وأن تلك التصورات لا يمكن أن تكون إلا

الأنساق الفلسفية، ومن ثم فهي سابقة لكل نظرية أو قانون، ولكن ذلك لا يعني أن كل التصورات هي بالضرورة فلسفية، إذ كما يقول المؤلف: ((بالطبع فإن كل البناءات التصورية ليست من صنع الفلسفة، فثمة وقائع خاصة يجب أن توصف بواسطة المتخصصين فيها.. هاهنا يتقدم هؤلاء بتصورات جديدة عنها، لكن فحص ووضع التصورات الرئيسية التي تنتظم خلالها آراؤنا عن العالم هو من واجب الفلسفة، فتقديم اقتراحات مبتكرة، وتعريفات جديدة، وتصنيفات طازجة توجه الفكر إلى قنوات جديدة، هي إحدى الوظائف التقليدية للفلسفة. ويكفي أن نفكر فقط في البناء التصوري الذي قدمته النظرية الذرية كفكر تأملي في العصور السحيقة للفلسفة والذي أثمر إطارا تصوريا ساعد على تقدم العلوم الطبيعية في العصور الحديثة))[1]، فمن هذا النص يظهر التناسق الفكري الذي حاول المفكر إعطاءه لمصطلح الفلسفة، ولوظيفتها.

ولذلك فإن "ريكمان" لا يعتبر المجهود الفلسفي الذي يقوم به الفيلسوف أو المفكر هو نوع من الوحي، وإنما هو جهد مستمر ومتواصل يأتي عن طريق البحث والممارسة والخبرة والتعلم، حيث يضيف في هذا الصدد: ((إن إسهام الفيلسوف ليس نوعا من الوحي.. إن على الفيلسوف أن يتعلم أولا مما يفعله الباحث، وعليه أن يدرك مشكلته، وبعد ذلك يكون قادرا بمهاراته الخاصة على تقديم إسهام في مجال الواجبات المعقدة التي تواجه طالب الشؤون الإنسانية))[2]، لأن هذه الشؤون الإنسانية تفرض على المفكر أو الفيلسوف أن تكون لديه خبرة عن أي موضوع من

---

(١) المصدر السابق، ص١١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١١٨.

موضوعات تفكيره الحسية، سواء كانت ذاتية أم موضوعية، وإلا فلا يمكنه أصلا أن يعرف ويدرك معنى الفكر وغرضه، إنه يعيش حياة صراع من أجل أن يتعرف على ما يحيط به، وهو في هذه المسألة لا يختلف عما ذهب إليه هيجل من قبل حين قال: ((إن الصراع في سبيل التعارف هو صراع حياة أو موت))[1].

## ثالثًا: نقطة الانطلاق ومفهوم المعنى

إن هذه النقطة هي مضمون الفصل الثاني من الكتاب ـ موضوع الدراسة ـ وتتحدد من خلال افتراضات المعرفة، ووجهة النظر الإنسانية، فبالنسبة لافتراضات المعرفة، يتعرض المؤلف إلى ماهية العلوم، ويميز بين الموضوعات التي تشكل ميدان العلوم الطبيعية المتمثلة في الأجسام، والكميات في المكان، وميدان العلوم الإنسانية التي تهتم: ((بالأفكار والمطامح والسلوك الهادف والإبداع الفني، والأدوات التي يصنعها الإنسان، والقواعد التي يفرضها البشر على أنفسهم، والأنظمة التي يستحدثوها، ذلك كلها ظواهر تجعل للحياة معنى، ولهذا كانت الدراسات الإنسانية تعالج أساسا وقائع ذات معنى))[2].

ومن الجلي أن هذه المعالجة متعلقة بالمعرفة الفلسفية بالنسبة للعالم وللكون التي تفترض أن هذا العالم ينطوي على "معاني"، وكذلك السلوك الإنساني نفسه ينطوي على معنى ودلالة أيضا. ومن هنا يصعب التمييز بين ما هو نظري وواقعي، وهنا

---

(١) فرانسوا شاتليه، هيجل، ترجمة جورج صدقي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، ط٢، ١٩٧٦م، ص١١٤.

(٢) المصدر السابق، ص١٢١.

يقول ريكمان: ((والحق أن النظرة الكلية للعالم تتضمن العديد من الافتراضات حول ما نعرفه وكيفية معرفتنا له، فتلك افتراضات مسبقة تفرض علينا عند النظر إلى أي موضوع حتى ولو بدا بسيطا))[1]، وهذا التفسير له دور هام وخصوصا في الدراسات الإنسانية التي يشكل مناهجها وعناصرها موضوع الكتاب الذي بين أيدينا.

وهكذا فالفلسفة هي وحدها التي يشمل موضوعها ميدان هذه المعرفة الافتراضية، ذلك لأن: ((الفلسفة تختلف عن العلم والذوق العام، ويبدو هذا الاختلاف واضحا في ذلك الفرع الذي نطلق عليه مصطلح نظرية المعرفة أو الابستمولوجيا[2] والذي يختص بفحص تلك الافتراضات، ويسعى هذا الفرع إلى وضع الأسس الفكرية للمعرفة والنظر في كيفية استيعاب العقل للواقع، وتفسر القاعدة التي يرتكز عليها قبولنا للأشياء كحقائق، وتفرقتنا بين الواقع والنظرية

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٢.

(٢) نظرية المعرفة أو"الابستمولوجية": هي البحث في طبيعة المعرفة وأصلها وقيمتها ووسائلها، وحدودها، وهي غير السيكولوجيا التي تقتصر على وصف العمليات العقلية، وتمييزها بعضها عن بعض دون فحصها، وهي كذلك غير المنطق الذي يقتصر على صياغة القواعد المتعلقة بتطبيق المبادىء العامة دون البحث في أصلها وقيمتها، ومن ثم فإن نظرية المعرفة هي البحث في المشكلات الفلسفية الناشئة عن العلاقة بين الذات المدركة والموضوع المدرك، أو بين العارف والمعروف، من أجل كشف درجة التشابه بين التصور الذهني والشيء الخارجي لمعرفة حقيقة المطابقة بينهما، فهي بصفة عامة، البحث في قيمة المعرفة وحدودها. (جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج٢، ص ٤٧٨، ٤٧٩).

والفرض))[1] ومن هنا فإن لنظرية المعرفة أو الابستمولوجيا علاقة وطيدة بما يعرف بعلم المناهج، وهذه هي المسوغات التي أراد المؤلف من خلالها تحديد موضوع الفلسفة، وتمييزه عن باقي موضوعات المعرفة الأخرى.

على أن الفلسفة ذاتها لا تنتقد وتدرس مسألة الافتراضات المتعلقة بالعلوم الخارجية، وإنما يجب أن تتمحور على ذاتها فتنتقد افتراضاتها وتدرسها، وذلك هو هاجسها الفعلي، لأن: ((كافة الافتراضات المسبقة حول معرفتنا وتفكيرنا هي الأخرى موضع تساؤل. وللهروب من مأزق الافتراضات المسبقة هذا وضعت الفلسفة نقطة انطلاق لليقين، والمثال على ذلك هو ما يعرف بالمعرفة الكاملة. ولقد حاول العديد من الفلاسفة اكتشاف هذا اليقين في مجالات متباينة))[2].

هذا بالنسبة لمسألة الافتراضات، أما ما يتعلق بوجهة النظر الإنسانية، التي شكلت العنصر الثاني من الفصل الثاني، فيرى صاحب كتاب "منهج جديد للدراسات الإنسانية" أنه حينما يبدأ الفيلسوف في التفكير لا يستطيع إغفال حقيقة كونه مخلوقا طبيعيا، له حواس يستخدمها في اكتساب كل ما يعرفه عن الطبيعة البشرية، ومنه يكون قبولنا للعلوم الطبيعية وللدراسات الإنسانية متضمنا في نقطة انطلاقنا، فنحن كما يقول: ((مخلوقات طبيعية لدينا أجسام تؤدي وظائفها بطريقة محددة بيولوجيا. وخلال أجسامنا نتأثر بالبيئة الطبيعية، فحواسنا تنقل لنا موضوعات العالم الخارجي. وطالما أن لدينا حاجات فسيولوجية ورغبات محددة فإن هذه الموضوعات هي الأخرى، تعبر عن الرغبة وتحقق الإشباع، ولكنها قد تعوق

---

(١) ريكمان، منهج جديد ...مصدر سابق، ص١٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص١٢٣.

ذلك أيضا، إنها تجلب اللذة أو الألم، الإشباع أو الإحباط، ونحن بدورنا نستطيع التأثير في البيئة وتعديلها وتغييرها. فإذا كانت الزهور تجلب لنا اللذة بوسعنا تنميتها، وإذا كانت الحواجز تعوق رؤيتنا بمقدورنا إزالتها))[1].

من هذا المنطلق فإن الإنسان باعتباره الكائن الوحيد الذي له القدرة على الفهم والنقد والإبداع والتحليل، فهو وحده أيضا القادر على أن يعي ما يحيط به، وبما يشكل وجوده سواء كان ثقافيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا، أو كان كذلك طبيعيا، فالمعرفة بالنسبة له تشكل رغبة غريزية، كما تشكلها له رغبة الأكل، والبحث عنه، ولهذا فإن مسألة التقدم والتطور، والإحباط والنكوص، لا ترتبط فقط بمجال العلوم الطبيعية، وإنما تتحكم فيها ضغوطات اجتماعية، لأن الإنسان في تفكيره، وفي تجاوزه، وفي حركته الفكرية بصفة عامة تتحكم فيه مجموعة من العناصر، الوراثية، والمكتسبة من العادات والتقاليد معا، وما دام الإنسان يخضع لكل هذه العوامل وقادر على تمثل حاضرها ومستقبلها، فهو من هذه الزاوية قادر على أن يصبح فيلسوفا، أو بالأحرى هي التي تجعل منه كذلك.

فالفيلسوف في نظرته للمسائل والمشاكل مطالب بأن ينظر إليها بموضوعية ((وحينما نتحدث عن الموضوعية يكون حديثنا في إطار سياق محدد بعد أن نسلم ببعض الشروط المعرفية، يحدث ذلك حينما يفحص عالم النبات الزهور. ولكن حينما نبحث مشكلة المعرفة برمتها ــ كما هو الشأن في نقطة بدايتها الفلسفية ــ لا

---

(1) المصدر نفسه، ص١٢٦.

نستطيع أن نهرب من منظورات علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ التي يحدث داخلها أي فعل معرفي))[1].

## رابعًا: الفهم

إن من ضمن الأطروحات الكبرى التي تضمنها الكتاب هو "الفهم" ويركز عليه "ريكمان" باعتباره عملية ضرورية لكل معرفة، ولا تولد معرفة إلا به، وقد تناوله من حيث: تعريفه، وصعوباته، وهو: ((متضمن في كل العمليات العقلية المستخدمة في حقل الدراسات الإنسانية، إنه يحور العمليات أو يعدلها، وهو بهذه السمات يميز مناهج الدراسات الإنسانية عن مناهج العلوم))[2]، ومن هنا كان الفهم هو نقطة البداية والانطلاق لكل معرفة، ولكن هذا المصطلح كما يشير المؤلف واجه كثيرا من الانتقادات خصوصا من أصحاب النزعة الوضعية، كما أنه اشتمل على كثير من الغموض حتى من أنصاره، والذين يذكرهم المؤلف من أمثال: آرون (Aron)[3]، وهيوجز (Hughes)، وهذا الأخير يعترف بصعوبة الدراسة التي واجهته

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص٢٠٣.

(٣) ريمون آرون (١٩٠٥-١٩٨٣ ): فيلسوف، وعالم اجتماع، اهتم بتوضيح العلاقة بين الواجب التاريخي و الوجود في التاريخ، وخاصة من خلال كتبه:مع الفلسفة الألمانية المعاصرة ١٩٣٦.ومحاولات حول نظرية التاريخ بألمانية المعاصرة١٩٣٨. وحاول في سنة ١٩٥٥ شرح الماركسية، من خلال كتابه أفيون المثقفين، التي فشلت تنبؤاتها بفرنسا بعد التطور الاقتصادي والاجتماعي.

في تحديد المصطلح في العلوم الاجتماعية الألمانية، ولذلك فلا غرابة في صعوبة بلورة هذا المصطلح عند أصحاب النزعة الوضعية.

ورغم ذلك فإن "ريكمان" يعتبر أن نقاد نظرية الفهم يمارسون فعلهم ذلك بنوع من اللغو، لأنهم يركزون على عموميات في تحديد كلمة "الفهم" في الدراسات الإنسانية، مما يؤدي إلى صعوبة تطبيق المناهج العلمية، ومن ثمة تخلو دراساتهم ومواقفهم من كل عملية نقد وتمحيص، وعليه فإنك: (( لا تستطيع أن تجادل في لغو حقا، وحتى إذا تجنبنا الحقيقة القائلة بتعدد الاستخدامات القائمة للمصطلح، فإن الاستخدام الشائع ليس مقدسا، ونحن حينما نستخدم تعريفا مبدئيا آخر يصبح من الممكن أن نحدد فعلا محددا للفهم في الإنسانيات، لكن ذلك ليس هو السؤال الحاسم إن المسألة الرئيسية هي هل يشكل الفهم منهجا متميزا له دلالته؟))[1].

إن هذا الغموض الذي يراه "ريكمان" يكتنف بمصطلح "الفهم" هو الذي أدى إلى ضرورة تحديد معناه بدقة، وذلك حسب شروط المعرفة المتوفرة والآنية، فالمصطلح يخضع للملاحظة، كما يخضع في الوقت نفسه للاتصال، فمثلا عندما تربط بين مسألتين عند ملاحظتك لهما فإن ذلك يختلف عما ينقله لك شخص آخر، ولذلك كما يلاحظ المؤلف أن هذا التحديد ينطوي على ثلاثة عناصر أساسية، في

---

عمل أستاذا بالسربون سنة ١٩٥٦، وبـ Collège de France سنة ١٩٧٠، من مولفاته أيضا: محاولات حول الماركسية الوهمية ١٩٦٥ marxisme Essai sur les imaginaires، الديمقراطية والتوتاليتارية١٩٦٥، نفكر الحرب ١٩٧٧، مداخلة من أجل أوربا المتدهورة ١٩٧٧ plaidoyer pour l'Europe décadente، نشر سيرته سنة ١٩٨٣، وكان دائما يعارض التأويل الماركسي للتاريخ.

(١) المصدر السابق، ص ١٤٣، ١٤٤.

هذه المعرفة: الأولى، فهم معنى الكلمات، والثانية، الاقتراب من فهم الأفكار، والثالثة، إدراك بعض الوقائع، وأن هذه العمليات ليست متتالية الحدوث، وإنما عناصرها تأتي في فعل واحد، وكل إدراك صحيح لهذه العناصر، سيؤدي إلى إزالة كل غموض حول معنى مصطلح الفهم، ومنه كما يشير: ((أنني أفهم رسالة صديقي، ثم استمر في القول، وكنتيجة لذلك ما يدور في ذهنه، ومن طبيعة الاتصال الناجح أن يكون فهم الكلمات، والإشارات أو صور التعبير الأخرى مؤديا إلى فهم الأفكار والمشاعر، والمقاصد التي يعبر عنها))[1].

وهكذا يكون لزاما علينا في عملية الفهم أن نميز بين عمليتي الفهم والاتصال، رغم الصلة الوثيقة بينهما، وهذا هو الذي يخلق الصعوبة في عملية "الفهم" في الدراسات الإنسانية، لأن العملية تتمحور حول المحتوى العقلي الذي يتحدد من خلال التعبيرات المصاحبة لكل فعل، ومنه نفهم ما يفكر فيه الناس، ويشعرون به، لأن السلوك الظاهر هو المنبع الوحيد للمعلومات عند كل مهتم بتعبيرات الآخرين وأفعالهم، ولكن ذلك لا ينهي مشكلة الفهم على الإطلاق[2].

فالتعبيرات باعتبارها مظاهر فيزيقية (طبيعية) هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن يحدث الفهم من خلالها، سواء من قراءتنا لمظاهرها الخارجية، أو مما تحمله من معاني تتجاوز تلك المظاهر إلى ما ورائها، ومن هنا فإن: ((كافة التعبيرات تكشف عن محتوى عقلي، وبعضها يحيل إلى هذا المحتوى. ولما كانت هناك أنماط مختلفة

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٨.

للتعبير، فإن الفهم أيضا يختلف باختلاف هذه الأنماط))[1]. ومن هذا المبدأ يقسم "ريكمان" التعبيرات إلى اصطلاحية وطبيعية، فالأولى ترتبط باللغة، أو جزءا من النسق اللغوي كالإشارات، أما الثانية فهي ترتبط بالمظاهر الفيزيقية (الطبيعية)، وهي تؤدي نفس الدور الذي تؤديه الأولى، ولذلك فإننا نجد في بعض الأحيان صعوبة في الفصل بين ما هو طبيعي، وما هو اصطلاحي، ولهذا كان يجب على كل باحث لدراسة هذه الأنماط المختلفة أن يستخدم عدة مناهج تتناسب مع طبيعة تلك الأنماط، وفي ذلك يقول: ((واجه الباحث في الدراسات الإنسانية بطائفة متنوعة من التعبيرات، وكل نمط منها له مشكلاته الخاصة، ويفتح آفاقا محددة للبحث، إذ أن كلا منها يكشف عن جوانب خاصة للمواقف ذات المعنى، وكذلك فإن فهم مختلف نماذج التعبير يعبر عن عمليات يعتمد بعضها على بعض، ويكمل بعضها بعضا))[2].

## خامسًا: الشروط الابستمولوجية للفهم

وتتحدد من خلال مشكلة التعرف على التعبيرات وفهمها، وشروطها الابستمولوجية، وما مدى ملاءمة كل هذه المناهج بالدراسات الإنسانية، وقد من المؤلف تلك الشروط في الفصل الرابع، وفي بداية هذا الفصل يبين المؤلف أن ما يعرف بنظرية المعرفة هي فرع من فروع الفلسفة، تحاول أن تعالج إمكانية المعرفة والحصول عليها، من خلال طرح التساؤل التالي: ما هي الشروط الواجب تحققها إذا أردنا أن نعرف شيئا؟ وللإجابة على هذا التساؤل يرى المؤلف أنه ورغم أن

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٥.

الاعتبارات الابستمولوجية العامة تلائم الدراسات الإنسانية، فإنه يجب أن نضع في اعتبارنا بعض الظواهر الطبيعية التي تعتبر هي الطريق الذي تتمثل فيه كل التعبيرات. ذلك أن المسألة الابستمولوجية النوعية للفهم إنما تثار ونحن بصدد التأكد من وقائع الطبيعة.

وبناء على ما سبق يقول "ريكمان" فإن: ((الخاصية المميزة لكافة التعبيرات أنها تدخل في علاقة مع الأشياء الأخرى التي تمثلها أو تشير إليها، وهي أيضا ترتبط بالضرورة بالنشاط العقلي أو بالمحتوى العقلي الذي يثير أو يبدع العلاقة السابقة، فالمنضدة تشير إلى فكرة بنفس الدرجة التي تشير فيها إلى موضوع، إلا أنه لوحظ أن بعض الحالات تنفرد بأنها ذات طابع عقلي فقط مثل التنهيدة))[1].

من ذلك يظهر أن هناك تعبيرات لها صلة بالواقع وبمواده، وأخرى لها صلة بالعقل، وكل تلك التعبيرات تحتاج منا إلى تأكيدات وإلى فهم، نظرا لأهميتها المعرفية، لأن هناك ارتباط وعلاقة بين المحتوى العقلي والسلوك أو الشيء المدرك المعبر عنه، وهو مما ينفي الرأي الذي يقول به أصحاب المذهب "الأنوي" القائلين بأن "الأنا" هي كل ما يوجد أو هي محور الوجود كله، وما عداها فلا كون ولا وجود، وهو في الوقت نفسه نفي للرأي التجريبي الذي يذهب أصحابه إلى أن خبراتنا الشخصية لا تتحدد في اللحظة الحاضرة، ولا بخبرة شخص بعينه، أي أنهم قللوا من شأن الكوجيتو الديكارتي، فقد كان يقول "جون لوك" في كتابه "مقال في الفهم الإنساني" أن الفكرة هي شيء يكون موضوعا للذهن حين يفكر شخص ما، فالخبرة وحدها هي التي تعطينا كل أفكارنا، ومن ثم، فهي ترتبط بمصدرين أساسيين

---

(١) المصدر السابق، ص١٦٢، ١٦٣.

هما: الإحساس والاستبطان الذي يعطي أفكارا بسيطة، فالمعرفة عنده إجمالا هي عبارة عن إدراك العلاقة والاتفاق أو التنافر والاختلاف بين أفكارنا[1]. ومن هنا فالذات العارفة حين تفكر لا ترى نفسها منعزلة في الوجود، وكل ما يحيط بها عبارة عن موضوعات، وإنما تشاركها كائنات أخرى تحيط بها، وهي الكائنات الإنسانية، وعليها تتوقف معرفتنا بذواتنا وبما يحيط بنا، وقد أشار المؤلف إلى ذلك بقوله: ((إن الفهم يفتح العالم على مصراعيه من أجلنا، أنه يرتكز على سياق تفسيري، وعلى تعددية أفراد ترابطين إن الفهم كما حدده ديلتاي (Dilthey)[2] بدقة هو "إعادة إكتشاف الأنا في الغير"[3]، رغم أن الشعور بالذات هو في حد ذاته فهما، أو موضوعا للفهم، وقد تصبح الأنا في مرحلة ما هي الغير عندما تكون موضوعا للمعرفة.

---

(١) آير، المسائل الرئيسية في الفلسفة، ترجمة، محمود فهمي زيدان. المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٨٨م، ص ٧٩.

(٢). ويلهالم ديلتاي Wilhelm Dilthey ١٨٣٣ –١٩١١، فيلسوف الماني، حاول وضع علم النفس والميتافيزيقا وتصورات العالم وفق مفهوم التاريخ، وهو بذلك ساعد على نشوء وظهورالحركة التأريخية، كتب مدخل إلى دراسة العلوم الإنسانية١٨٨٣.

multimedia, encyclopedie klio. larousse

وكان ديلتاي يرى أنه من الصعب تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على العلوم الثقافية، كما حاول أن يضع حدا فاصلا بينهما، والفكر الإنساني يتخذ في كلا العلمين شكلا متميزا ومنهجا مختلفا، فالفكر في العلوم الطبيعية يتخذ صورة "التفسير"، في حين يتخذ في العلوم الثقافية صورة "الفهم". (ريكمان، المصدر السابق، ص١٥).

(٣). المصدر السابق، ص١٦٤.

إن تشابه الكائنات الإنسانية لا يعني في الوقت نفسه تماثلا مطلقا بينها، بل إن هناك خصائص معينة تميز كل إنسان عن الآخر، وتلك السمات هي التي يؤكدها علم النفس دوما على أن الأفراد يختلفون عن بعضهم البعض، كما أن تاريخ الإنسانية يؤكد أن المجتمعات البشرية تختلف في حضاراتها من عصر لآخر ومن مجتمع لآخر، وكشفت لنا أيضا الأنثروبولوجيا عن كيفية تأقلم الإنسان مع البيئة التي يعيش فيها، ومن هنا أصبح لكل فهم شرطين أساسيين هما: ((أنه يجب أن يكون ثمة تعبير، وأن هذا التعبير يجب أن ينبع عن خواص الطبيعة الإنسانية المألوفة لدينا، أصبح من الأمور المسلم بها بعد ظهور كتاب "هايك" المسمى "بالثورة المضادة في العلم" والذي تحدث فيه عن المعتقدات والآراء التي لا نتمكن من ملاحظتها مباشرة في عقول الناس، ولكننا نتمكن من التعرف عليها من خلال أعمالهم وأقوالهم، وما ذلك إلا لأننا نمتلك ببساطة عقولا متشابهة لعقولهم))[1].

وبناء على ما سبق فإن الاعتقاد بأننا لا نتعرف على مظاهر التعبيرات الإنسانية كالحب والطموح وغيرهما إلا إذا كانت لدينا خبرة، فهو اعتقاد زائف، وعليه ينتقد "ريكمان" كل من يذهب هذا المذهب، وهو الموقف الذي عبر عنه "ناجل" من قبل في كتابه "بناء العلم"، لأننا لو خضعنا للاعتقاد السابق فإنه يكون من العسير علينا أن نتعلم شيئا من الفهم، ولا نستطيع معرفة أي شخص يختلف عنا، ولن يغني الفهم خبرتنا، ولن يكون منهجا نافعا للدراسات الإنسانية.

ويحدد " ريكمان" الشروط المعرفية للفهم فيما يلي: أولا: رغبتنا في الاتصال، وباتجاهنا نحو التعبير عن أنفسنا. وثانيا: ألفتنا بالقواعد والاصطلاحات التي تحكم

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٦ ــ ١٦٧.

الأغلبية العظمى من التعبيرات، أي بالطبيعة الإنسانية التي يتعمق فهمها بواسطة الاستبطان والسير الذاتية، لأن كل ما يخلقه العقل البشري يمكن للعقل الإنساني فهمه، من خلال سمة التآلف الإنسانية، فمعارفنا ــ حسب كانط ــ هي من صنع عقولنا أو من خلقنا، ففهمنا للتعبيرات الفردية التي لا حصر لها يعني فهمنا "للعالم الثقافي" الذي يحمل ملامح هذه التعبيرات، وهي عبارة عن خلفية ثقافية تتوسع وتمتد عن طريق تراكم الخبرات التي تتوقف على الرحلات والقراءة، وما شابه ذلك، وهذا هو الهدف العام من الدراسات الإنسانية التي تسعى لأن تجعل معرفتنا أكثر اتساعا، من خلال معرفتنا لجزئيات ذلك التراكم في الخبرات. ثالثا: فهم السياقات المحددة التي تحدث فيها التعبيرات، من خلال فهم الجملة والفقرة والكتاب ...الخ، أي الوعي بالسياق، وهذا الشرط الأخير لا يخص الدراسات الإنسانية وحدها بل يشمل كل الدراسات بما فيها الطبيعية[1]، ويتضح من هذه التحديدات للفهم أنه ليس منهجا، وإنما هو عملية معرفية.

من الواضح في هذا السياق ــ كما يقول المؤلف ــ إن: ((الإطار الرئيسي لتطور الدراسات الإنسانية العلمي يجب أن يدعم بعملية تجعل المألوف والمقبول من لدى الرأي العام الشائع مفهوما فهما نسقيا ومنهجيا، ونضالنا نحو تحقيق كامل للشروط الابستمولوجية الثلاثة يمكننا من التواصل إلى فهم منهجي دقيق))[2]،

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧٦.

فالمألوف الذي يمثل التراكم في الخبرة ليس مستعصيا على الوصف والدراسة والتجزئية كما يذهب إلى ذلك برادلي[1]، حين يعتبر الخبرة كلا غير قابل للتجزئة.

## سادسًا: المنهج العلمي في الدراسات الإنسانية

إن هذا العنوان هو محور الفصل السادس من كتاب "ريكمان"، وفيه يبدأ المؤلف في التمييز بين علم المناهج ونظرية المعرفة، فيرى أن الأول: هو العلم الذي يدرس المناهج التي تكتسب المعرفة من خلالها، بينما الثانية: فهي تدرس الشروط الرئيسية اللازمة للحصول على المعرفة، أما المنهج في حد ذاته فهو كما يحدده تجمع نسقي من عمليات معرفية ترتبط بتقنيات نوعية أو بإجراءات خاصة[2]، ولما كانت الدراسات الإنسانية متنوعة كانت مناهجها كذلك، فالتأمل الفلسفي يتضمن تركيبات متميزة، أي منهجا خاصا، ونفس الشيء ينطبق على التأمل الأخلاقي والتقدير الجمالي، ومناهج هذه الأنماط المعرفية، تختلف عن مناهج العلوم الطبيعية، ورغم ذلك يمكن القول كما لاحظ ريكمان أن كلا من العلم والدراسات الإنسانية يستخدم المنهج العلمي، لكن النسق العلمي يختلف عن نسق الدراسات الإنسانية فيما يتناولانه[3]، وهنا يقع الاختلاف بين العلوم الطبيعية وبين الدراسات الإنسانية، رغم أنهما يسعيان معا للحصول على المعرفة وتطويرها.

---

(١) آير، المسائل الرئيسية في الفلسفة، ص٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٠.

ومن الجدير بالذكر أن الرأي السابق لا ينفي استخدام المنهج العلمي في الدراسات الإنسانية، لأن المنهج العلمي كما حاول تعريفه "ريكمان" هو العلاقة النسقية بين التنظير والخبرة، وغالبا ما تستخدم فيه الملاحظة والتجريب تقنيات دقيقة، من أجل إمداد التعميمات والفروض بالمواد اللازمة وتصبح هذه الأخيرة في مرحلة ما هي نفسها عرضة للاختبار، وإذا أكد الاختبار هذه التعميمات والفروض تصبح قانونا علميا، وإذا لم يؤكدها بحثنا، عن تعميمات وفروض أخرى، وأن هذه العملية لا تخرج عن المناهج المتبعة في الدراسات الإنسانية، لذلك يقول "ريكمان": ((إن القول بأن الدراسات الإنسانية تستخدم المنهج العلمي ... هو قول لا جدال فيه، فنحن لا نجد أمامنا أي رأي حول الطبيعة المحددة للدراسات الإنسانية يتناقض مع هذا القول. لكن يحدث أحيانا أننا نبقي كلمة "علمي" للبحث المرتكز على القياس والتحكيم الفيزيقيين، فإذا حدث هذا، أمكن لنا أن نصف الدراسات الإنسانية بأنها " لا علمية". لكن مثل هذا الرأي الأخير يمثل تصورا تعسفيا وضيقا لطبيعة المنهج العلمي، بحيث إذا استطعنا أن نحدد ذلك المنهج تحديدا أوسع وأكثر شمولية، فإننا سوف نلمس أن باستطاعتنا استخدام المنهج العلمي في حقل الدراسات الإنسانية استخداما كبيرًا))[1].

أما موضوع منهج العلوم الطبيعية أو العملية هو الوقائع الفيزيقية (الطبيعية)، بينما موضوع منهج الدراسات الإنسانية هو الوقائع العقلية التي تتضمن، اللغة، والدين، والتقاليد، والأدب، والفكر، والمشاعر، والأهداف، أو بصفة إجمالية كما يقول "ريكمان" هو "التعبيرات"، مؤكدا على أن هناك علاقة بينهما (العلوم

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٠١.

الطبيعية والدراسات الإنسانية)، إذ أن نتائج الوقائع الفيزيقة (الطبيعية) تمثل نقطة الاهتمام في الدراسات الإنسانية، وأن تلك الوقائع العقلية المرتبطة بالإنسان لا توجد بذاتها، وإنما هي تتجسد دائما في عالم طبيعي "فيزيقي"، فهناك عندئذ حقيقة جلية لا تقبل الشك، وهي وجود علاقات متبادلة بين مختلف العلوم، غير أن الوقائع الفيزيقية تبنى من وجهة نظره على مبدأ "العلية". أما الوقائع العقلية فتبنى على مبدأ "السببية"، الذي قد يختلف فيه سبب ظاهرة ما عند شخص معين، عن نفس السبب في ظاهرة أخرى، عند شخص آخر. ولذلك فهو يرى أن هناك اختلافا بين المبدأين، رغم اعتيادنا على استخدامهما بنفس المعنى، وفي ذلك يقول: ((ومن أجل الوضوح فسوف أقيم تمييزا حاسما بين هذين المصطلحين على الرغم من أننا نستخدمهما في لغتنا العادية وكأن لا تمييز بينهما. ومن هذا المنطلق تكون الضوضاء علة اهتمامي بها. وحينما يؤدي الاهتمام بالضوضاء إلى أن أغلق أذني، فإنني أسمي ذلك أو أعده سببا لا علة))[1]، ومن هنا فإن الأسباب هي مدار الدراسات الإنسانية المتمثلة في الوقائع العقلية باعتبارها أهدافا أو أغراضا أو غاية نهائية، والعلل هي مدار الدراسات الطبيعية التي تخلصت من مبدأ العلة الغائية وخصوصا بعد نمو الروح العلمية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والثورة التي حملها كل من سبينوزا وهوبز على غيبيات الفكر.

وانطلاقا من تلك المحاولات، حسب المؤلف كانت قد تخلصت العلوم الطبيعية من فكرة الغائية، التي بقيت فقط في حقل الدراسات الإنسانية، لأن الفعل الإنساني الذي يشكل الوقائع العقلية ـــ رغم ذاتيته، سواء من حيث كونه حالة عقلية، أو

---

(١). المصدر السابق، ص ٢١٣.

من حيث كونه طريقة خاصة للنظر في الأشياء، أو للتفسير الـذاتي ـــ وللتمثيـل، فالإنسان حين يستخدم المطرقة في تثبيت مسمار في حائط كي يضع عليه صـورة، فإننا ـــ كما يقول "ريكمان" ـــ نجد أنفسنا أمام تمييز واضح وحاسم بـين العلـوم الفيزيقية، وبين الدراسات الإنسانية، إذ: ((بينما تعكس قوانين العلـوم الفيزيقيـة الانتظامات الموجودة بين الأشياء على النحو الذي توجد عليه في الطبيعة ... نجـد قوانين الدراسات الإنسانية وهي متطابقة مع القواعد الـتي صـنعها الإنسـان، إن المبادىء الأخلاقية التي تعكس تقييماتنا والتي يتم في ضوئها صنع القرارات هي أيضا قواعد من هذا النوع ...فإن مثل هذه الأسباب تكشف عن اهتمـام الدراسـات الإنسانية بالقيم والمبادىء والمعايير على عكس العلوم الفيزيقية))[1].

لقد ميز "ريكمان" بين العلل والأسباب في الأفعال الإنسانية من خلال مبدأ "الحرية" بالرغم من أن هذه الأخيرة من أهم المشاكل الفلسفية المعقدة الـتي دارت بشأنها جدالات كثيرة، فالإنسان يقوم بأفعاله بناء على أسباب، أي أنه يكون محددا بمجموعة من البواعث والغايات والمبادىء التي تعطي معنى لفكرة الحرية، بالرغم من أننا نفكر في ضوء العلل ومحكومون بالتركيبات العضوية للجسم، إلا أننـا كمـا يلاحظ المؤلف: ((نتحدث عن أناس أحرار، إن قبول الأسباب يتضـمن الاختيـار، ومن ثم فإننا ننتقل من قرار إلى قرار بدلا من أن نكون خاضعين لسلسلة من العلـل والمعومات. إن الحرية بهذا المعنى تصبح واحـدة مـن المعلومـات المميـزة للعـالم الإنساني))[2].

---

(١). المصدر السابق، ص ٢١٥، ٢١٦.

(٢). المصدر نفسه، ص ٢١٦.

## سابعًا: الموضوعية في الدراسات الإنسانية

بقي لنا في هذه الدراسة أن نبين معنى الموضوعية في الدراسات الإنسانية، التي تعرض لها "ريكمان" في كتابه موضوع الدراسة، وذلك من خلال تحديده لمسألة الاختلاف بين المنهج في العلوم الطبيعية، والمنهج في الدراسات الإنسانية، على أساس التمييز بين الذاتية والموضوعية في دراسة كل منهما، فهو يرى أنه من الصعوبة بمكان أن تتخلص الدراسات الإنسانية من الذاتية، التي هي ميزة لها، ومع ذلك فإنه يمكننا التحدث عن الموضوعية فيها، ولكنها تختلف عن الموضوعية في العلوم الطبيعية، إذ: (( الموضوعية تشير في مجال الدراسات الإنسانية إلى قدرتنا على إيجاد علاقة تربط نتيجة كل حالة فردية بهيكل كلي من الأدلة يكون في نهاية الأمر معرفة ذاتية أو أنساقا ذاتية نتمكن بها من استبعاد الذاتية الفردية التي قد تفسد جزءا من البحث العلمي))[1]. بمعنى أنه على الباحث في الدراسات الإنسانية أن يجعل ذاته مستقلة عن دائرة الفعل الذي يشكل الواقعة العقلية، وبالتالي يبعد كل فهم ووصف يفتقر إلى الدقة والانضباط، بمعنى أنني أجعل نفسي ــ كما يلاحظ المؤلف ــ خارج دائرة البحث فلا أصدر حكما أخلاقيا ولا أقوم فعلا، وهذه هي مهمة العلم نفسه الذي يهدف إلى التعبير عن العلاقات القائمة بين الأشياء التي يقوم

---

(١). المصدر السابق، ص٢٢٠.

الإنسان بدراستها، والتعرف على أنساقها، غير أن طرق الحصول على تلك المعرفة تختلف من موضوع لآخر[1].

ولذلك فإن الدراسات الإنسانية ليس من واجبها الإعلان عن الأحكام الأخلاقية، ولا النظر في أسس قبولها، ومدى صدقها وموضوعيتها، لأن ذلك من واجب الفلسفة والأخلاق على اعتبار أن هناك تمييزا بين الدراسات الإنسانية، وبين الأنساق الفلسفية، ومن ثم يستطرد المؤلف قائلا أن: ((الدراسات الإنسانية مثلها في ذلك مثل العلوم الطبيعية تهتم بالوقائع، وذلك رغم أن وقائع الدراسات الإنسانية هي من نوع خاص يختلف عن نوع الوقائع الموجوة في علوم الطبيعة))[2]، بمعنى أن الوقائع في الدراسات الإنسانية ينتجها كائن إنساني، عكس الوقائع في العلوم الطبيعية، التي تنتجها الطبيعة ذاتها.

ويخلص المؤلف في حديثه عن الموضوعية، وعن المنهج العلمي في الدراسات الإنسانية، إلى القول: ((بأن الدراسات الإنسانية تستخدم المنهج العلمي، أي أنها تتشارك مع العلوم الطبيعية في الطرق النسقية العامة التي تربط العمليات المعرفية في سعي حثيث نحو المعرفة))[3]، وذلك رغم خصوصية كل علم من هذين العلمين، ومن الطبيعي إذا كانت هناك علاقة بين هذين العلمين، أن تكون علاقات أخرى متبادلة بين العلوم الإنسانية نفسها التي تختلف موضوعاتها أيضا بعضها عن بعض،

---

(١). عمار بحوش و محمد محمود الذنيبات، مناهج البحث العمي وطرق إعداد البحوث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط٢، ١٩٩٩م، ص٨.

(٢). المصدر السابق، ص٢٢٢.

(٣). المصدر السابق، ص٢٢٧.

لأن تداخل العلوم وتبادلها له قيمة مثمرة على مجال البحث والمعرفة الإنسانية، وأن الذي يمدنا ـــ حسب ريكمان ـــ بهذه الأهمية في التعاون بين تلك العلوم هي الدراسات الإنسانية نفسها.

ونؤكد في هذا المجال، أن "ريكمان" يربط مختلف العلوم الإنسانية بموضوع واحد هو التعبيرات المحددة في سياق ما، فتعبيرات علم النفس يمكن أن تكون هي نفسها للتاريخ وللإقتصاد ...الخ، ولكن ألا يعني هذا نوعا من التناقض والتعارض في المفهوم والموضوع نفسه؟، فإذا كان الموضوع هو التعبيرات فإنه يصبح واحدا في جميع العلوم، وبالتالي فلا يمكن فصل موضوع عن آخر، وهنا نجد أنفسنا في مأزق تفسيري بالنسبة للعلوم الإنسانية من حيث موضوعها. وكذلك من حيث منهجها، لذلك يمكننا القول أنه إذا كان هناك تداخل بين هذه العلوم كلها، فلا يعني ذلك أن يكون موضوعها بالضرورة واحدا، وهو التعبيرات، فكيف يمكن أن يكون الإنتاج والدخل والنقد التي هي من اهتمامات علم الاقتصاد، تعبيرات؟، إنه رغم ارتباط تلك الاهتمامات، بالإنسان، إلا أنها منفصلة عن ظواهره، فهي تتعلق بالمواد الطبيعية المتوفرة التي تسهل العملية أكثر مما ترتبط بتوجهاته وتعبيراته، فهي مثل الظواهر التشريحية التي ترتبط بذات الإنسان ولكنها ليست تعبيرات إنسانية، بل هي موضوعات لعلم التشريح الذي يختلف عن العلوم الإنسانية ـــ كما سبقت الإشارة ـــ.

إن ما يمكن أن نخلص إليه، ونستنتجه، من خلال عرضنا لأهم المبادىء الفكرية التي شكلت موضوع الكتاب المدروس، هو اعتقادنا أن ما قام به المؤلف يعد جهدا كبيرا، في بيان جملة من الخصائص الفلسفية الرئيسية، التي سعى من خلالها

إلى تحديد مناهج الدراسات الإنسانية، وكذا ضبط موضوعاتها، سواء في تحديد علاقتها مع بعضها البعض، أو في تحديد علاقتها أيضا مع باقي العلوم الأخرى، ولكن كل ما قام به، وما توصل إليه "ريكمان"، لا يمكن أن يعتبر حدا نهائيا أو مطلقا في المعرفة البشرية، وخصوصا على مستوى المناهج التي تناولها بالدراسة، إن الموضوع الذي تناوله المؤلف مازال في حاجة إلى استمرارية ومواصلة في البحث، لأن البحث في المناهج ذاتها يخضع لمنطق التقدم والتطور المستمر الذي يحصل من مستوى طموح الإنسان وجهده المتواصل الذي لا يتوقف عند حد معين، إذ ليست هناك قوالب ثابتة يمكن وضعها كمرجعية لكل بحث في العلوم، وإنما المرجعية الوحيدة، للإنسان الذي يبحث، هي صفة التفلسف الملازمة له، وهي سمة أساسية من سماته، ودليل على فاعليته في تغيير محيطه الثقافي والمعرفي، ويمكن اعتبار الكتاب — موضوع الدراسة — في ذاته سمة من سمات التفلسف الذي يدخل في باب الاختلاف والتنوع المعرفي، الذي يساعد على تطوير الفكر الإنساني.